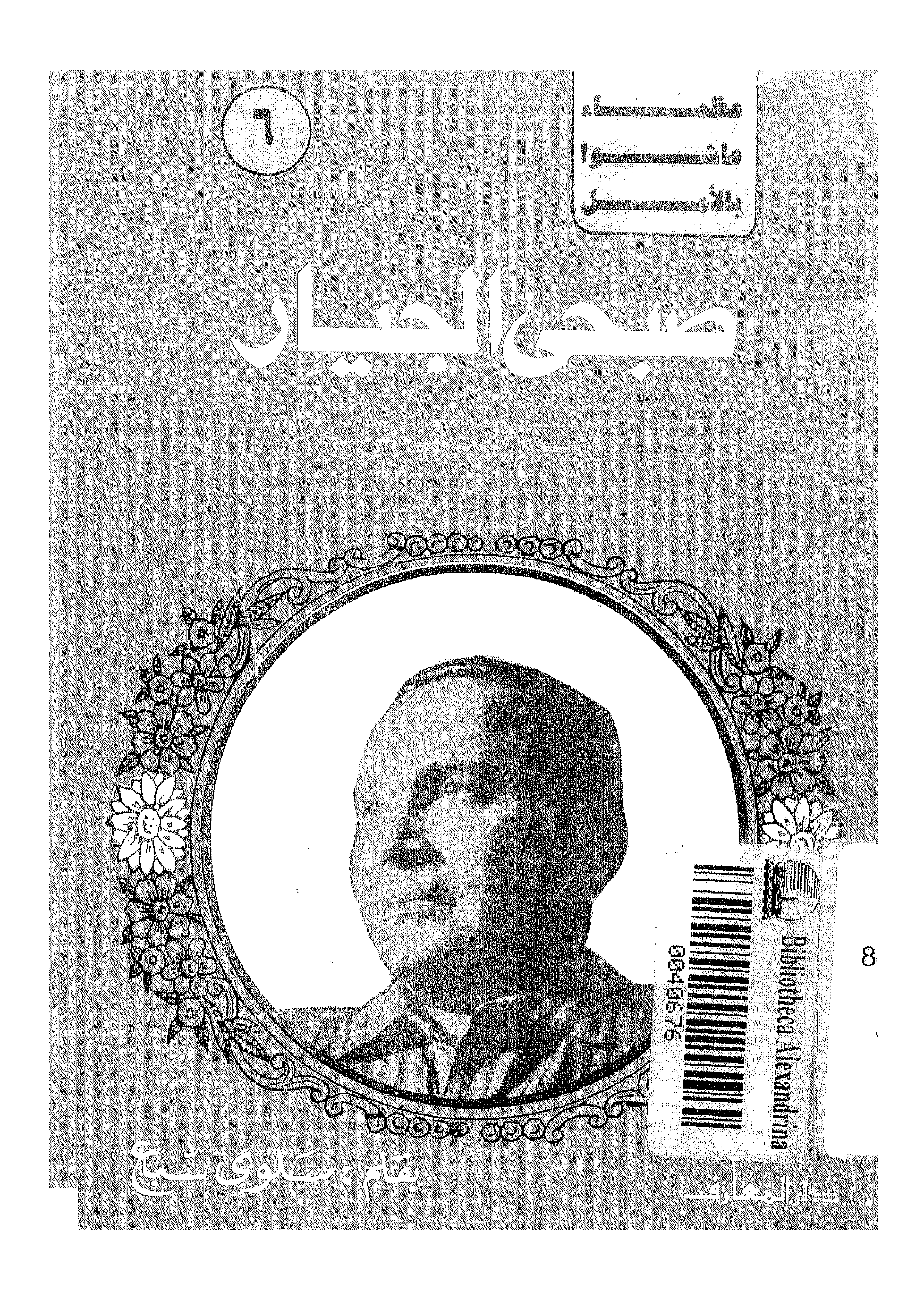



عظماء
عاشوا
بالأمل
٦
صبحي الجيار
بقلم: سلوى سبع
دار المعارف

# صبحي الجبار

## نقيب الصابرين

بقلم: سلوى سباع

تصميم الغلاف : **محمد أبوطالب**

# كلمة لابد منها

مؤلفة هذا الكتاب ، فتاة امتحنها الله فى إرادتها ، وكتب عليها أن ترقد على فراشها منذ سنوات طويلة ، فاقدة قدرتها على الحركة ، لكنها كانت أكبر من هذه المصيبة ، فركبت جوادَ التحدِّى والصبر والأمل ، كأنه البراق ، يخترق حجب اليأس والظلام والإحباط والاستسلام ، ليصل إلى ضرب المثل ، والقدرة على الحياة !

انطلقت فى عالمها الصغير المقيد ، فأخذت بقلبها وعقلها توسع جدرانه الأربعة ، حتى استطاعت أن تدخل العالم كله من نوافذه وأبوابه ومسام أحجاره .

لم تستسلم لشيء ، بل أعطت من إرادتها ونفسها وحبها لهؤلاء الذين يعانون مثلها من أصحاب الظروف الخاصة ، وقدمت يد المساعدة القوية تنتشل هؤلاء من ظلمات العجز والقهر ، إلى شواطئ الأمل والقوة والأمان ، أحالت عجزها إلى قوة ، ويأسها إلى أمل ، وحلمها إلى حقيقة ، وقهرها إلى طاقة لا تحد ، واستسلامها إلى صبر وإرادة .

إن سلوى سبع ترأس أكبر جمعية لإعانة المعاقين فى الشرق الأوسط ، لكنها جمعية تتكون من سلوى سبع نفسها فقط ، هى الرئيس والعاملون والمحاسبون ، واستطاعت على مدى سنوات قليلة أن تعيد البسمة والأمل والقوة إلى آلاف المعاقين على اختلاف حالاتهم وإصاباتهم ، بعيدًا عن ( الروتين ) الحكومى ، و( توقيعات المسئولين ) !

وسوف يأتى اليوم الذى يؤكد لسلوى سبع ريادتها فى هذا المجال بعد أن تقتنع - هى - بضرورة التخلى عن العمل فى صمت - لكى يتعلم منها الناس جميعًا كيف يقدمون يد المساعدة دون منّ أو أذى .

وكنا نعرف كيف كانت سلوى قريبة من الأستاذ صبحى الجيار ، وما الذى كان يربط بين روحيهما من أواصر المحبة والوفاء والقوة جميعًا .

ولهذا لم يكن غريبًا أن نطلب منها أن تكتب عن هذا الرجل ، فكان هذاالكتاب الذى يعبر عن الوفاء فى أجمل معانيه ، ويعطى القدوة فى أبرز صورها ، ولم يكن أحد غير سلوى يستطيع أن يفعل ذلك ، بهذا الصدق الذى يتجلى فى كل كلمة ، وكل صفحة ، فقد أحست بمعاناته ، واشتركت معه فيها ، فقصت تجربة حياة نادرة ، تحمل القدرة على التحدى والعطاء .

إن سلوى عظيمة تعيش بالأمل ، تكتب الآن عن عظيم آخر عاش بالأمل ، وتستطيع أيها القارئ العزيز أن تتلمس ذلك المعنى بيسر وبساطة ، إذا كنت أنت أيضًا صادقًا فى إقبالك على معرفة أبعاد هذه التجربة . !

**أحمد سويلم**

الحياة لوحة رائعة ، يمتزج فيها الأبيض بالأسود.. والفنان البارع هو الذى يستخدم الظلال السوداء لتحدم المساحات البيضاء وتبرز نصاعتهـا.. وهكـذا أحـاول أن أستفيـد مـن البقـع السوداء فى حياتى.. فلولا الظمأ ما شعرنا بلذة الارتواء.. ولولا الألم.. مـا أحسسنا بمتعة الشفاء

**صبحى الجيار**

# معه

منذ أكثر من عشر سنوات — وبالتحديد يوم ٣ يناير ١٩٧٧ — تعرفت عليه شخصيًّا ، وسمعت صوته مباشرة عبر أسلاك التليفون .. أذكر يومها أنى استجمعت كل شجاعتى ، وتركت التردد الذى لازمنى طويلاً .. وأدرت قرص التليفون .. وأتانى صوته قويًّا شامخًا ، طيب النبرات ، مُرَحِّبًا بى كصديق وقارئة أرادت فقط التعرف على تلك الشخصية التى سمعت عنها .. كنت قد سمعت عنه الكثير ، عن تجربة مرضه ، ومعاناته مع القيود التى كبلته ، وجعلت كل حدود عالمه هى تلك الحجرة التى لا يغادرها ، ولا يشغل منها سوى جزء من سريره ، يرقد

فيه فى وضع أفقى دائم .. وتساءلت بينى وبين نفسى كيف يمكن الإنسان – مهما أوتى من قوة تَحَمُّلٍ وصَبْر – أن يحيا هكذا سنين عمر مضت ؟ ! بل كيف يستطيع أن يكيّف نفسه وظروفه ليحقق السعادة لنفسه ولمن حوله ، ويستبدلها بنظرات عطف أو دموع فى المآقى ؟ ! أقول : تساءلت كثيرًا ، ولم أستسلم للتفكير ، وقررت خوض التجربة بنفسى ، والتعرف على تلك الأسطورة الرائعة : صبحى الجيار ..

وذهبت لزيارته وحضور ندوة أدبية من ندواته.. ووجدتنى وجهًا لوجه أمام ذلك الإنسان، معجزة الصبر والتحدى فى زماننا هذا، ولقرون طويلة قادمة.. رأيت أمامى القوة.. التحدى.. وجدت عزيمة.. أملاً.. تفاؤلاً.. رأيت أمامى ابتسامة لم أشهد مثلها فى حياتى.. ابتسامة ملأت وجهه وهو يرقد فى سريره تحوطه مظاهر البساطة والأناقة فى حجرته وفى طريقة ملبسه..

وجلست أمامه أبحث عن ذلك المريض المعوق الذى طالما سمعت عنه وقرأت ، فلم أجد سوى تلك الروح الرائعة ، والثقة بالنفس ، وذلك الجسد الذى لا يشغل سوى حيز سريره ، تستشعر فى كل لحظة من وجودك معه أنه يتحرك ويتحرك حتى تكاد تهتف به : كُفَّ عن الحركة حتى نستمتع بجلسة

هادئة! . يتحرك وهو المقيد الراقد على ظهره ، ويبتسم ويضحك ضحكة يملؤها التفاؤل، وهو الذى يعلم تمامًا ألاَّ أَمَل من شفائه .. يعطى الحب والصداقة لمن حوله ، يتحدى وهو المفتقد لأدوات التحدى، اللَّهُم إلاّالنفس القادرة على التحدى.!



# الطفولة السعيدة

فى ٢٧ فبراير ١٩٢٧ ولد صبحى الجيار ، وكان لمولده فرحة كبرى عاشتها الأسرة بأكملها .. وكان موضع اهتمام ورعاية شديدة ، وصلت فى أوقات كثيرة لدرجة التدليل من أمه التى تحدث عنها صبحى الجيار فى كتابه « ربع قرن فى القيود » قائلاً : كانت أمى هادئة الأعصاب .. جريئة .. قاسية ، لا تهزها آلام الغير .. تتصرف وفق مصلحتها .. مرحة .. متفائلة .. وأسوأ ما يضايقنى من والدتى أنها لا تؤمن بالتضحية من أجل الغير ..

هكذا تحدث عن والدته ، لكنه يعترف أيضًا أنها برغم هذا فإنها كانت تدلله .. أما الأب فهو نموذج لكثير من الآباء فى ذلك الوقت .. كان يعمل مقاولاً .. كان إحساسه بالمسئولية نحو أسرته وعمله يجعله عصبيًّا فى أوقات كثيرة .. ولكنه كان عاطفيًّا ، شديد الخجل ، شديد الاعتزاز بكرامته ، وبالرغم من حرصه الشديد على تعلم أبنائه فإنه لم يتعلم ، فى حين أنَّ أخاه الأكبر أتم تعليمه فى أمريكا .. وهكذا حاول ذلك الأب تعويض عدم تعليمه فى الإصرار على تعليم ابنه صبحى .. ومكرم – الذى أصبح طبيبًا فيما بعد – أما ابنتاه فلم يتحمس لإتمام تعليمهما ، واكتفى بحصول كل منهما على شهادة الابتدائية الفرنسية بمدرسة الراهبات ..

وهكذا نشأ صبحى الجيار بين أبوين مختلفى الأمزجة والطباع ، ولكنهما فى نهاية الأمر متحابان ، يعمل كل منهما على إسعاد أفراد أسرته ، ولكن بطريقته الخاصة . كانت طفولته السعيدة الهادئة الأحداث والمواقف لا تنبىء إلاّ بمستقبل أكثر سعادة وتفاؤلا .. وأكثر رخاء ويُسرا .. ولكن هل تأتى الرياح بما تشتهى السفن ؟ ؟

برغم تلك السعادة فى طفولته لم ينج من الإحساس بالخوف الشديد ، مثله مثل كل الأطفال فى سنّه .. كان يخاف من الظلام ، ولا يتخيل مجرد تواجده فى مكان غير مضيء .. كان يصاب بفزع حقيقى وغثيان إذا رأى طيرًا يُذبح أمامه ، كان منظر الدماء من المناظر غير المحتملة الرؤية بالنسبة له ..

هكذا كانت ملامح شخصيته تتبلور وتتضح معالمها من أولى سنوات عمره .. كان ذلك الطفل المتفوق دراسيًّا ، صاحب الهوايات المتعددة ، المهذب فى أخلاقياته ، عطوف القلب ..

ويلتحق صبحى الجيار التلميذ بمدرسة العقادين فيما بين ١٩٣٦، ١٩٤٠.. كان تلميذاً متفوقًا، يعتمد على الإصغاء التام للمدرسين، ويركز فى استيعاب دروسه من شرح مدرسيه حتى يكاد يستغنى بذلك عن المذاكره فى البيت.. كان يحترم مدرسيه احترامًا شديدًا، مما جعله من المرموقين البارزين فى الفصل..

فى فناء المدرسة كان يمارس الألعاب المحببة لنفسه ، ولأنه كان بدينًا فقد كان يفضّل الألعاب التى لا تحتاج إلى حركة كبيرة .. كان لا يميل للعراك ولا يسعى للشر ، مما جعله فريسة



التحق صبحى الجيار بمدرسة العقادين ، وكان تلميذا متفوقًا ،
يركز فى استيعاب دروسه

لزملائه الأشرار .. ولهذا كان يتفانى فى مذاكرته حتى يثبت ذاته داخل الفصل أمام من أهانوا كرامته خارجه ..

لقد علقت فى ذاكرته شخصيات كثيرة ، منها ذلك المدرس الضخم الجسم ، الذى كان مصدر رعب فى قلوب كل تلاميذ المدرسة .. إنه « شاهين أفندى » ، مدرس العلوم وفلاحة البساتين ، والذى كان أيضًا المشرف على المدرسة ، مما أعطاه حق البطش والعقاب .. وكان لا يتورع عن ضرب التلاميذ فى قسوة بسن المسطرة ، وكان مجرد ظهوره عند مدخل المدرسة كفيلاً بأن يجعل من كان يجرى يقف ، ويكف الضاحك عن ضحكه ، ويتسمر كلٌّ فى مكانه حتى يمر إلى حجرته .. ولأن « شاهين » أفندى كان منظمًا جدًّا فقد كان يعين طلبة السنة الرابعة كقادة لطوابير السنوات الأخرى .. وكان التلميذ صبحى الجيار قائدًا لطابور السنة الثالثة .. لكنه لم يستغل سلطته تلك فى عقاب أى تلميذ يخرج عن النظام ، وإنما كان فقط يلوّح بسلطته تلك حفاظًا على ذلك النظام .. كان يخشى « شاهين » أفندى ويتجنبه .. ويذكر أن أول عقوبة بدنية له كانت على يد « شاهين » أفندى ، فقد تشاجر

مع زميل له وضربه .. وسأله المدرس هل ضربت زميلك ؟ ورد بكل صدق : نعم .. وضربه « شاهين » أفندى .. ولكن ظل الأب يفخر أن ابنه لا يكذب حتى ولو كان عقابه قاسيًا .

ومن النماذج التى لا ينساها كذلك .. صقر أفندى مدرس اللغة العربية .. صاحب الفضل فى توجيهه للكتابة .. والاستماع لقطعه الأدبية وتصحيحها له .. وحينما يستهويه ما يكتب تلميذه كان يصيح فى فرح « ما هذا يا شيخ حمزة فتح الله ؟ ؟ » ..

لقد كان الشيخ حمزة هذا مفتشًا عريقًا فى اللغة العربية .. وهذا يدلنا على بدايات الأديب صبحى الجيار وكيف كانت ..

وهكذا تتتابع صور من كانوا مدرسيه وأصحاب الفضل عليه.. حسنى أفندى، مدرس اللغة الإنجليزية والجغرافيا والتاريخ.. محمد على أفندى مدرس الحساب.. فؤاد أفندى مدرس الجغرافيا الذى كان له فضل كبير فى حب صبحى الجيار لهواية الرسم وممارسته له بشكل رائع ومتقن فيما بعد.. كان فؤاد أفندى يقيم مسابقات فى رسم الخرائط، وكان يخصص للفائز الأول نسخة من المقتطف—مجلة قيمة كانت



كان التلميذ صبحى الجيار قائدًا لطابور السنة الثالثة ،
لكنه لم يستغل هذه السلطة فى عقاب أى تلميذ يخرج عن النظام

تصدر في ذلك الوقت.. أيضًا كانت مسابقاته في رسم وجوه الأجناس.. وجه هندى أحمر، وجه يابانى، وجه زنجي.. وهكذا..

وفى هذه المرحلة من حياته تتحدد ملامح شخصيته وقيمه الأخلاقية .. كان يردد دائمًا : « قد أحتمل المرض ومعاناته لسنوات طويلة ، ولكنى لا أحتمل سوء الأخلاق لثانية واحدة » هكذا كان ، ولهذا علينا ألاّ نتعجب حين نعلم أنه بالرغم من حبه لمدرسته الابتدائية وتلاميذها ومدرسيها ، فإننا نجده قد كره مدرسته الثانوية – الإبراهيمية الثانوية – والتى التحق بها عام ١٩٣٩ ، وبرغم نفقاتها الباهظة ، فقد صدم الطالب صبحى بأخلاقيات طلبتها ومناقشاتهم البذيئة المعانى ، وألفاظهم التى كان يرفض حتى مجرد الاستماع إليها .. وكان يرى فى تلك المدرسة بالرغم من فخامة مبانيها التى تبدو وكأنها القصور ، فإن فى داخلها مجتمعًا أشبه بمجتمع الغابة .. يحكمه القوى وينهزم فيه الضعيف ..

وقف أحد الطلبة يومًا وقد تجسدت على ملامحه نزعات الشر والرغبة فى التحرش بأى طالب من زملائه ، وتجنبه الكثير منهم ، ومن بينهم الطالب صبحى الذى اضطر إلى

الإمساك به ، مدافعًا عن نفسه ضد سماجة وسخافة هذا الآخر الذى تحرش به مع باقى زملائه .. ولأن « صبحى » كان قويًّا فى مواجهة الآخر فقد هزمه وجعل منظره مثيرًا للضحك ، وصبحى يمسك بإحدى قدميه ، والآخر معلق فى الهواء ، وكأنه يساق بسلسلة ، ولم يتركه إلا بعد أن اعتذر له .. ولم يتعرض له قَطُّ بعد ذلك ..

وتغير مبدأ الاستسلام والمسالمة داخل نفس صبحى ، فأصبح من ذلك اليوم يتبع مبدأ الشر بالشر والبادى أظلم .. ولم يعد ذلك الصبى الساذج المثير لسخريتهم ..

نادى مدرس الرياضيات يومًا على أسماء طلبة الصف الثانى الثانوى مصحوبة بدرجاتهم – صبحى الجيار – صفر من عشرين فى الجبر .. وثلاثة من عشرين فى الهندسة ..

وصدم صبحى من درجاته ، فقد كان متفوقًا جدًّا ، وعلم الوالد ، وصمم على الاستعانة بمدرس خصوصى ، ولكن « صبحى » أصر على مواجهة الموقف :

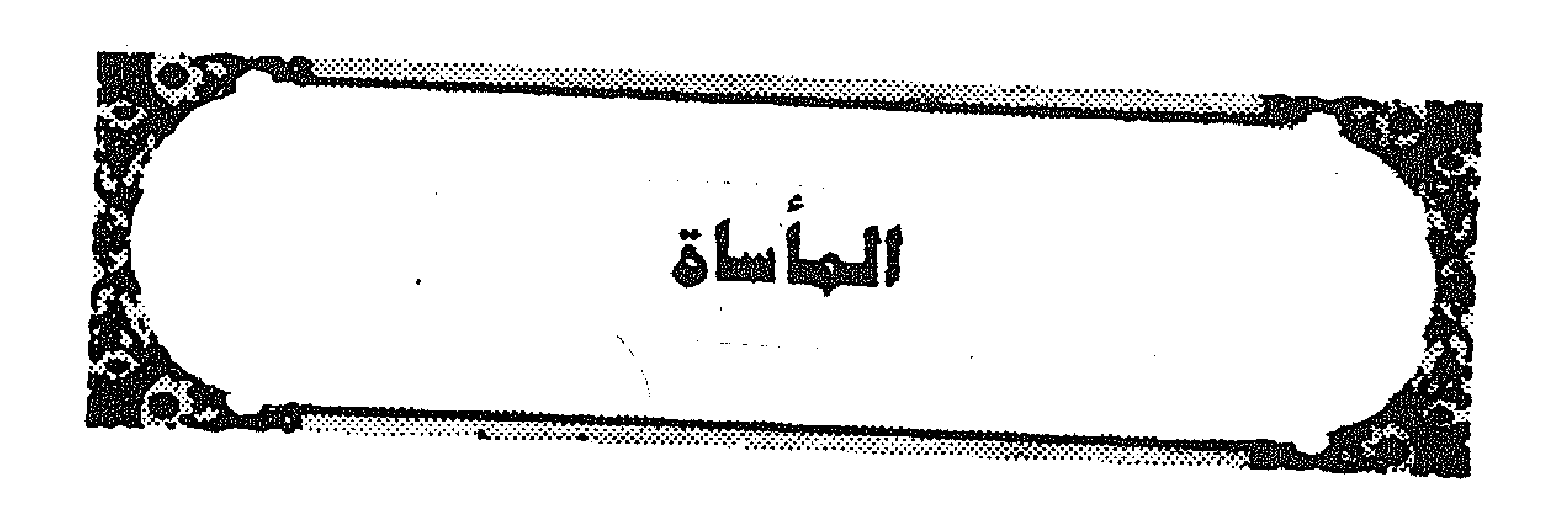
يكفينى يا أبى أن أشترى كتاب امتحانات .. وسأثبت لك بتحدى قدرتى مرة أخرى على التفوق .. وقد كان .. ونادى المدرس على الأسماء مرة أخرى ..

– صبحى الجيار .. ست عشرة درجة فى الهندسة .. ثمانى عشرة درجة فى الجبر ..

كانت مصادفة أن يرسب .. مصادفة ربما وليدة ظروف نفسية خاصة نبعت من حساسيته ورقة مشاعره .. جعلت من سنوات دراسته فى مدرسة الإبراهيمية عبئًا نفسيًّا عاشه على مضض حتى انقضت .. لم يبق منها سوى بعض ذكريات ، وبقايا ملامح تلح على مخيلته ، من وقت لآخر .. ملامح وجوه أحبها ، وأخرى ضاق بها .. صور مختزنة لأماكن زارها فى رحلاته المدرسية : المساجد القديمة ، الأهرام ، القناطر الخيرية .. وظل هذا الزاد من ذكرياته عن زياراته تلك معه حتى آخر ساعات العمر .. ظلت معه أيضًا بعض الصداقات الحميمة التى امتدت عبر سنوات طويلة من عمره .. يتصل بهم ويتابع أخبارهم .. كانت الصداقة لديه مقدسة .. والوفاء

والصدق هما المعنى الحقيقى والمتأصل فى كل علاقاته .. ظل يحلم بالوفاء .. يمنحه .. ويعترف أن وفاء من حوله له من أكبر نعم الخالق عليه .





# المأساة

عاش الصغير صبحى الجيار طفولته السعيدة بطولها وعرضها .. أوكما يقولون : عاش سنَّه بما فيها من الترف والشقاوة والتمرد واكتساب الهوايات.. طفولة سعيدة حقًّا .. نكاد نعترف أنها طفولة لم يعشها أحد من سنه بنفس الحب والاحتواء .. إلى أن جاء يوم تَرَكَتْ فيه الأسرة ذلك البيت الذى كانت تسكنه بجوار كوبرى الملك الصالح لتتخذ سكنًا آخر قريبًا من مدرسة الإبراهيمية .. وكان ذلك فى صيف ١٩٤٠ .

كان البيت قديمًا .. يتراقص بمن فيه إذا مرت أمامه سيارة نقل .. لكنه كان واسعًا يطل على ميدان .. وكان سبب هذا الانتقال وقوع والد صبحى فى أزمة مالية شديدة .. ففضل أن يقتصد فى كل شىء ليربى أولاده .. ومن هنا بدأت أولى حلقات المأساة ..

وكان من عادة الأولاد أن يلتقوا فى الإجازة الصيفية وفى أمسياتها الجميلة .. ويقيموا مباريات لكرة القدم .. يقضون فيها أوقاتًا طيبة ..

وفى مساء ٢٣ سبتمبر عام ١٩٤١ كان صبحى واحدًا من الفريق الذى يلاعب فريقًا آخر فى كرة القدم .. ويستمر اللعب طويلا .. ليعود صبحى مع جيرانه سيرًا على الأقدام من الروضة حتى ميدان فم الخليج ..

وفجأة يشعر صبحى بألم فى قدمه اليمنى كأن مسمارًا ينفذ فى حذائه كلما دب بقدمه على الأرض .. ويستند على كتف أحد أصدقائه إلى أن يصل إلى البيت ..

ولم ينتبه صبحى إلى هذه الوخزة .. وتصورها من أثر اللعب أو الإرهاق ..

وتزيد عليه الآلام فى اليوم التالى .. فيصطحبه والده إلى طبيب الحى الذى يصف له الأدوية التقليدية للروماتيزم .. باعتبار أنها آلام عادية .. لكن الألم سرعان ما سرى يومًا بعد يوم إلى ركبته اليمنى ثم إلى ركبته اليسرى ثم إلى الفخذ الأيمن .. وهكذا .

وتكثر بجانب سرير صبحى الأدوية .. ويواصل دراسته ورحلته اليومية إلى المدرسة .. بل يستخدم الوصفات البلدية ، ونظامًا خاصًّا فى تناول الطعام .

وينتبه الوالد إلى خطورة ما يحدث لولده .. فأسرع به إلى أكبر أطباء القلب الذى أكد لهما سلامة القلب .. وأعطاهما مزيدًا من أدوية الروماتيزم ..

ولم يمض شهران حتى بدأ الداء يزحف إلى العمود الفقرى ثم باقى المفاصل .. حتى كان صيف ١٩٤٣ وهو بداية للعلاج على يد أكبر طبيب عظام فى مصر فى ذلك الوقت ، وهو الدكتور محمد كامل حسين ، والطبيب الباطنى سيد عفت اللذين قررا فى حزن أن لا أمل .. ومع هذا كان على كل منهما مهمة صعبة ، وهى إتقان دور الطبيب المعالج .. الباحث عن

الشفاء .. كانت ابتسامة الدكتور سيد عفت تسبقه وهو يهمس لصبحى لينتزعه من آلامه .. « أنت الآن فى تقدم .. وسأجرب معك طريقة حديثة لعلاج مرضك » ..

لم يكن المريض فى تقدم .. ولم تكن هناك طرق حديثة فى علاجه ولكن كانت الرغبة القوية لبث الأمل فى نفس ذلك المريض الذى لا أمل من شفائه حتى وسائل العلاج الكاذبة كانت بالنسبة له نوعًا جديدًا من الألم.. ويالقسوة الأيام حين تمضى فى السخرية من شخص ما.. بصورة ما.. وقطعًا لسبب مّالا يعلمه إلاالله!! ولكن كيف لمن لم يبلغ الرابعة عشرة أن يسبق أحداث عمره، ويرى مستقبل أيامه من خلال تلك الآلام؟ كيف له أن يرى أن ما حدث خير له ، بل كل الخير ؟ !

جرب الأطباء كل طرق العلاج عملاً بالمقولة الخالدة : أسلوب العلاج الجديد يخلق فى النفس أملاً جديدًا .. وكانت أولى تلك المحاولات « الحمى الصناعية » وتتلخص فكرتها فى محاولة إصابة الجسم بحمى شديدة عن طريق حقن الجسم بمصل التيفويد مثلا ، ويكون الحقن تدريجيًا حتى يعتاد الجسم عليها .. وياللدهشة !! فما إن بدأ مفعول المصل يسرى فى

الجسم حتى زالت آلامه وبدأ يستعيد قدرته على الحركة ..
وكانت سعادة لا تقدر للأسرة جميعها .. ويتوالى الحقن بنسبة
أكبر ، مرة ، ومرات .. لكن التجربة تفشل فى النهاية ،
وكأنها مجرد هدنة مع الألم .. وكم حلم ذلك الصبى بهدية
أخرى من الزمن ينعم فيها بحالة هدوء نسبى من الألم ..

وتتوالى محاولات العلاج تحمل كل منها أملاً جديدًا .. وتنتهى
بألم نفسى وجسدى فوق طاقة ذلك الصابر الذى استسلم
تمامًا لمحاولات الأهل وتجاربهم معه للوصول لنقطة خلاص
من تلك الآلام .. وعملاً بالمثل القائل : « اسأل مُجَرِّبًا ولا تسأل
طبيبًا » فقد خضع للتجربة ، وذهب للدَّجَّالين ..
والمشعوذين .. وكان فى خضوعه هذا قمة الاستسلام لليأس
القاتل الذى غلبه بعدما بدأت الدراسة فى أكتوبر ١٩٤٢ ،
فلم يستطع الطالب صبحى الجيار اللحاق بزملائه .. وكان
يرى فى ذلك قمة مأساته .. ورضى أن يذهب لدجال
ومشعوذ .. وعانى كثيرًا من أن يكون حقلا للتجارب ، حتى
حلقات الزار لم ينج من أن يحضرها بأمر من أمه ، حتى

يسترضوا الأسياد ، ويقهروا العين والحسد الذى أصابه وكان سببًا فى مرضه !! وفشلت كل تلك المحاولات بالطبع ، وكان رد أمه التقليدى بعد كل فشل « طالما أنت غير مؤمن بالعلاج فلن يفيدك فى شىء » ..

ومن محاولات العلاج التى خضع لها فى استسلام أيضًا الكَىّ بالنار .. والتخلص من البؤر الصديدية بالجسم باستخدام الجراحة .. والدفن فى الرمل ، والعلاج الروحى .. ويالها من قشعريرة تسرى فى البدن لمجرد ذكر تلك الأسماء .. فماذا عن الصابر .. الصامد وهو يحياها بالفعل ؟ ؟

ولأن المرض يخلق فى النفس حساسية خاصة تجعل المريض فى حاجة نفسية دائمة لتعاطف المحيطين به معه ، وتجعله أيضًا حساسًا فى طلباته منهم .. وتصبح مشكلة كبرى لو طلب كوب ماء وتوانى أحد عن إحضاره .. وقتها تصبح آلامه أكبر . . ومشكلته أقسى على النفس . . كيف للأصحاء أن يدخروا صحتهم ولا يشعرون بنفسية ذلك المقيَّد العاجز . . تلك كانت مأساته وتعاسته .. وكان عليه أن يتحمل مع المرض

عدم الإحساس به كمريض ، وباحتياجه الدائم حتى ولو لطفل صغير يقدم له خدمة قد تكون ضئيلة ، ولكنها عسيرة جدًّا بالنسبة لمن فى قيوده . . ولطالما ردد بينه وبين نفسه : ماذا لو احتجت وأنا وحدى لورقة وقلم .. لكوب ماء . . لإطفاء النور . . لفتح الشباك . . ماذا أفعل ؟ ؟ ماذا أملك ؟ ؟

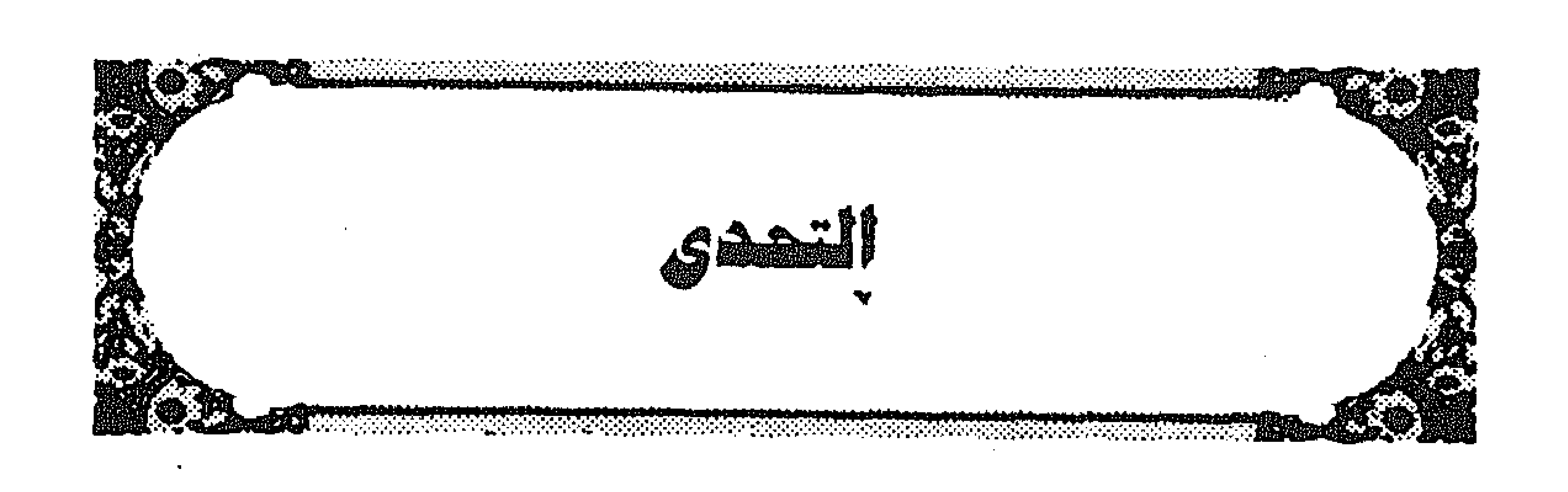
ذلك كان حواره مع نفسه ، ولكن مع الآخرين – خاصة والده – فقد كان يرفض تمامًا أن يتعامل على أساس أنه مريض .. كان صبحى يناقش الأب بمنطق صاحب الحق فى إبداء الرأى ، ولكن كان لأبيه رأى آخر .

– أنت ياصبحى سبب نكبتى .. أنفقت على علاجك كل ما أملك .. لما تبقى تكسب تقدر تقول رأيك .. ثم .. ماذا تفهم وأنت راقد هكذا . !

ولأن صبحى كان يفهم جيدًا نفسية الأب المنهارة من رؤية ابنه راقدًا هكذا بلا حراك ، وبلا أمل ، فقد كان عليه وقد بلغ الخامسة والعشرين أن يفكر فى أيامه القادمة .. كيف له

أن يكون نافعًا .. متفوقًا .. قادرًا على الكسب وهو يحمل على ظهره قيودًا ستلازمه العمر كله ؟ كيف له أن يستعيد حب وثقة الأب الذى يبدو أنه كان يحب صبحى المتفوق ، وليس صبحى الابن فقط ..






إن مسنيرة التحدى والعظمة لدى صبحى الجيار تبدأ منذ عام ١٩٤٣ حتى آخر رمق فى حياته ، وهى مسيرة تتعدد طرقها وأساليبها وأشكالها وألوانها .. مما يجعلنا نعجز عن الإحاطة بها كلها .. وأن نسوق طرفًا منها فى اتجاهاتها المختلفة .

**الدراسة :**

قرر أن يعود لدراسته عام ١٩٤٣ بعد انقطاع عنها .. اعتمد على نفسه فى المذاكرة وتلخيص المقررات بدون الرجوع للمدرسين .. وتقدم لامتحان شهادة الثقافة العامة « من منازلهم » .. وحان موعد ذهابه للجنة الامتحان ، وقابلته صعوبة

جديدة من صعوبات حياته : كيفية الانتقال ، وإمكانية جلوسه ثلاث أو أربع ساعات فى اللجنة ..

وحملوه .. وحشروه فى سيارة أجرة .. ومنها سار بعكازين إلى مكان لجنته ، وجلس ليضع إجابات الأسئلة .. آملاً أن يكون نجاحه فيها بداية لمستقبل يحلم به ويتمناه .. ونجح فى الامتحان ، وحصل على شهادة الثقافة ، وكان هذا آخر عهده بالامتحانات والمدرسين .. وبداية علاقته الوطيدة بالقراءة المكثفة فى كل مجالات الأدب والشعر وعلم النفس .. حتى إنه أصبح أكثر ثقافة من كثير من أقرانه ..

وفكر فى كتابة أول قصة ، ليس سعيًا لاحتراف الأدب والتكسب منه .. ولكن تعبيرًا عن نفسه ، وبوحًا للأوراق بمشاعر وأحاسيس دفينة لديه وتساميًا عن الاستسلام لأفكار كثيرة نتجت عن وحدته ، وقيوده ، وحرمانه من أشياء كثيرة يتمتع بها مَنْ فى سنِّه ..

**التدين :**

وينتمى صبحى الجيار إلى أسرة مسيحية .. هذا ما تثبته شهادة ميلاده .. ومن العجيب أن يكون للتدين عنده أسلوب مختلف عن كلِ الناس .. بل يؤكد تحديه لكثير من الأفكار

السائدة « لا أتذكر إن كنت مسلمًا أو مسيحيًّا إلا إذا تعرضت لسؤال عن ذلك » هكذا كان رده عليَّ فى إحدى ندواته .. لم يتهرب قط من مسيحيته ، ولم يحاول نفاق من حوله من المسلمين حتى يكسبهم .

لم يتعصب قط ويردد دائمًا أن الفضل فى ذلك يرجع لوالده الخير طيب القلب واسع الأفق الذى كان يهوى سماع القرآن من الشيخ محمد رفعت بالرغم من كونه مسيحيًّا .. وكم من مناقشات غاضبة ثارت بين الأب وبين عميد الأسرة – خاله – أمين باسيلى .. كيف لهذا البيت المسيحى أن يتردد فيه القرآن الكريم .. ماذا لو رأى عدد أشرطة القرآن الكريم فى مكتبة صبحى الجيار ؟ ؟ وماذا لو عاش وشهد اقتناءه لأشرطة نادرة منها ؟ ؟

ولأن ذلك العميد للأسرة الكبير السن .. الغنى لا يسعى لشىء سوى زيادة ثروته .. فقد كان فى نظر صبحى الصغير السن أبعد ما يكون عن المسيحية فى سماحتها وإنسانيتها ..

لم يحاول ذلك الخال دخول حجرته قط بعد مرضه ، وهو غير القادر على الحركة لا يملك لقاءه خارجها .. وكتب له

رسالة تحمل ذلك المعنى .. وذكره بتعاليم الإنجيل « إن مرور جمل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غنى إلى ملكوت الله».. كان هذا تحديدًا سافرًا لا يستطيعه إلا من هو فى صراحة وإنسانية صبحى ..

ووصلت الرسالة للعميد .. وأتى يحمل غضبه ، ودار بينهما حوار أشبه ما يكون بمباراة كلامية مستفزة لكل منهما .. فى نهايتها اعترف الخال بأنه قصّر فى حق ذلك الصبى الذى تحداه دونًا عن أفراد العائلة جميعًا ..

كان يكره أن يعامل من مدرس الدين الإسلامى على أنه مسيحى .. وكم شعر بمرارة وهو يخرج مع بقية الزملاء المسيحيين من الفصل مع بداية حصة الدين ويعود إليه مع نهايتها ..

كان الصبى فى الثانية عشرة من عمره .. وكانت تحتويه فكرة عدم التعصب .. وأن الله واحد لنا جميعًا – مسلمين .. مسيحيين – ورأى أن عليه إرضاء الله بالطريقة التى يختارها عقله .. ليس فى هذا تنكّر لدين آبائه وأجداده ..

وقرر صوم رمضان :

– غدًا أول أيام رمضان .. سأصوم يا أبى لأنى أرغب فى ذلك .. وثار الجميع ضده .. ثم وافقوا على خوض التجربة أملاً فى رجوعه عنها بنفسه .. وصام الشهر كله وصام العام الذى تلاه حتى منتصفه .. وتوقف .. لإصابته بقرحة فى المعدة .. وظل يردد دائمًا : « مامنعنى عن الاستمرار فى الصوم إلا المرض .. أقصد .. إرادة الله . ! »

– نعم .. إرادة الله .. ما أروع الإيمان بالله والرضا بما قسمه للإنسان منا .. ومن الطريف أن صبحى الجيار مع بداية مرضه كان يبحث داخله عن سبب لذلك المرض .. وكان كثيرًا ما يتساءل : لماذا أنا بالذات ؟ ؟ ولماذا فى هذه السن بالذات ؟ ؟ ودفعه ذلك للتأمل بشكل أعمق فيما قرأه من قبل تذكر فجأة نظرية تناسخ الأرواح التى قرأ عنها كثيرًا وصدقها .. وقال لنفسه « إذا كان كل شيء يتحرك فى فلك دائرى خالد ، فلماذا لا تكون روح الإنسان أيضًا خالدة ؟ وإذا كان الأمر كذلك فإن الذى يقاسى من آلام المرض وقيوده مثلى قد يصبح

فى الحياة الأخرى بطلاً من أبطال الرياضة .. وتلك هى عدالة السماء » ..

هكذا كان يحاول .. مجرد محاولة لفلسفة ما حدث .. ولو أن الأمر لا يحتاج إلى الفلسفة .. فإرادة الله هى الغالبة .. وقد كانت بدايات معاناته ومأساته تتمثل فى كيف لسنوات عمره أن تتحمل فكرة المرض وعدم الحركة ..

**علاقته بالكلمة :**

لقد نسى المرض – والحمد لله – أن يغزو عقل وقلب صبحى الجيار .. كما نسى كذلك مفاصل أصابع يديه ..

ومن هنا كانت رحلته مع القراءة والكتابة معًا .. وكانت رحلته كذلك مع الفرشاة .. لقد أمسك بالقلم والفرشاة ليكتب ويرسم .. وكأنه يثقب جدار سجنه بهاتين الأداتين الصغيرتين .

لقد أتاح المرض لصبحى الجيار وقتًا طويلاً للتفكير والتأمل والقراءة .. وكذلك للإنتاج الغزير ..

ويبدأ رحلته مع الكلمة .. فيعكف على قراءة عشرات الروايات البوليسية ، ثم ينتقل خطوة إلى مختلف العلوم والفنون والآداب لكى تعوضه عن الانقطاع الإجبارى عن دراسته ..

وجنبًا إلى جنب راح ينمِّى موهبته القديمة فى الرسم .. فأخذ يخطط رسومًا ساذجة فى البداية ، بل خطر له أن يقلد الرسامين الذين يعجب بهم .. حتى وصل بسرعة إلى نتائج طيبة .. واكتسبت يده مرونة وثباتًا وخبرة ..

ويتلفت صبحى حوله فيجد نفسه لا يزال يتسلى بالقراءة والرسم . . ويكتشف أنه لم ينتج حتى الآن شيئًا إيجابيًّا مفيدًا . .

وذات يوم فى صيف ١٩٤٦ قرأ إعلانًا صغيرًا فى إحدى الصحف عن طلب رسام لإحدى المجلات الإقليمية .. فسارع بالكتابة إلى المجلة عارضًا خدماته فى الرسم الصحفى .. متعهدًا لهم بالرسم بلا مقابل .. ولم يذكر صبحى شيئًا عن مرضه ، حتى لا يترددوا فى قبول عرضه المغرى ..

ويجىء الرد سريعًا بالقبول وضرورة مقابلة صبحي لرئيس تحرير المجلة .. وهنا يقع صبحى فى مأزق .. إذ كيف يمكنه أن ينتقل لمقابلة رئيس التحرير وهو الذى لا يغادر حجرته ولا سريره إلا فى الأمور الخطيرة جدًّا ..

وبعد تفكير يمسك صبحى بالقلم ويكتب إلى مجلة — المصباح — عارضًا خدماته بالمراسلة ، شارحًا لرئيس تحريرها خطة العمل .. مرسلاً له بعض أعماله من الكاريكاتير والفكاهات المرسومة .

ويفاجأ صبحى بصدور المجلة وفيها رسوماته .. وكانت فرصة كبيرة قرر بعدها أن يدرس الرسم على أسس علمية بالمراسلة مع أحد معاهد لندن للرسم الصحفى ..

وبدأت رسومه تنشر فى مجلات : بلادى ، وأخبار الدنيا ، والبعكوكة ، والسينما ، والفن ، والجيل ..

أما رحلته مع الكتابة فقد بدأها بمجالات ساذجة فى كتابة القصة والرواية البوليسية .. وكانت أول قصة تنشر له عام ١٩٤٦ بعنوان ( من أول نظرة ) فى مجلة المصباح ..

لكنه عانى بعد ذلك فى سبيل نشر ما يكتب حتى نشر فى مجلة ( روايات الأسبوع ) قصصًا مؤلفة ومترجمة ..

كان يكتب كل هذا وهو راقد بلا حركة .. ولم يكن الأب يقرأ له .. ويلتحق بعد ذلك فى العمل فى مجلة ( روايات الأسبوع ) التى ما لبث أن تفرغ لها تمامًا ..

والحق أن « روايات الأسبوع » كانت بالنسبة له مدرسة الصحافة الحقيقية .. كان يرسل أعماله دون أن يلتقى بصاحب المجلة الذى أعجب بنشاط صبحى وطلب مقابلته .. وتعاطف معه ومع ظروفه .. وطلب منه أن يكون سكرتيرًا لتحرير المجلة .. عليه أن يضع تصورًا كاملاً لشكل المجلة .. ويكتب الافتتاحية بنفسه .. ويشرف على أبوابها ..

وهكذا قدر لذلك الصابر المقيد أن ينطلق من جدران سجنه .. ويحيا حياة طبيعية مثله مثل أى شاب يسير على قدمين بل أكثر .. فقد أصبحت حياته أوسع وأرحب وعلاقاته متعددة .. ومعجبوه فى ازدياد حتى إنهم كانوا يلحون فى طلب صور له كأى نجم سينمائى كل ذلك بفضل إرادته الفولاذية ..

واتسعت نشاطاته داخل روايات الأسبوع .. حتى إنه أخذ يترجم روايات عالمية لنشرها على صفحاتها ، وكان ما يحصل عليه من أجر نظير ذلك كله لا يسد جميع احتياجاته ، ولا يقابل ما يبذله من جهد خارق ، خاصة لمن يعانى من قيود مثل قيود جسده .. ولكن سعادته بعالمه هذا .. وبكيانه الموجود باعتراف الجميع كان أثمن وأقيم لديه من كل كنوز الدنيا .. كان مرتبطًا

نفسيًّا وماديًّا بمجلة روايات الأسبوع ، حتى قرر صاحبها توفيق الشمالى أن يغلقها .. وشعر صبحى الجيار أن فى ذلك انهيارًا لكثير من آماله وطموحاته .. وحتى لا يدع لليأس طريقًا فى نفسه فقد تمسك بخيوط حماسه الباقية لديه .. وتساءل بينه وبين نفسه وماذا بعد ؟ .. لماذا لا يستغل خبرته التى اكتسبها فى العمل فى العديد من تلك المجلات فى إصدار مجلة بنفسه ؟ ؟ وهل يملك الإمكانات المادية والصحية التى تمكنه من إنجاح تلك الفكرة وإخراجها لحيز التنفيذ ؟ ؟

«هل.. هل.. وكيف».. أسئلة كثيرة دارت بخاطره قبل أن يأخذ أولى خطواته التنفيذية لإصدار مجلة «قصتى» .. صعوبات كثيرة واجهته كان أولها قيوده التى تمنعه من الحركة بنفسه للاتفاق مع ممول المجلة .. أو الاتفاق مع المطبعة.. أواختيار نوع الورق المناسب للطبع وللإمكانات المادية.. ثم البحث عن مندوبى توزيع .. والأمر الأكثر أهمية.. البحث عن أدباء وقصاصين ومحررين لديهم من الحماس ما يجعلهم راضين تمامًا عن الكتابة فى المجلة بدون أجر.. والحق أن إرادته وإيمانه تمامًا بقدراته التى وهبها إياه – سبحانه وتعالى – كل ذلك

كان كفيلاً بإعطائه دفعة لإثبات ذاته والتحدى أمام تلك المعوقات حتى صدرت مجلة « قصتى »فى ٣يناير ١٩٥٤..

كان الموضوع الرئيسى على صفحاتها هو القصة القصيرة ، مترجمة أو عربية .. فمن الأسماء الأجنبية لكتاب القصة القصيرة تشيكوف .. جى دى موباسان .. أندريه موروا .. ومن الأسماء العربية التى كانت بداياتها الأولى على صفحات « قصتى » ، والتى كان صبحى الجيار حتى آخر أيامه يفخر بأنه أول من اكتشفهم وأتاح لأقلامهم فرصة الكتابة الأولى ، حتى وصل كثير منهم لمراتب مرموقة فى عالم الصحافة والكتابة الأدبية . . من تلك الأسماء الكاتب الكبير أحمد بهجت ، والذى نشرت له أعمال مترجمة أو مؤلفة فى جميع أعداد « قصتى » .. أيضًا غالى شكرى الذى بدأ بكتابة القصة ، وما لبث أن اتجه للنقد ، وأثرى المكتبة العربية بالعديد من مؤلفاته النقدية . . . أيضًا من تلك الأسماء .. صبرى موسى .. محمد تبارك . . محمد عبد الحميد .. عبد العال الحمامصى . . وجميعهم من الأسماء اللامعة التى تحفل بها ساحتنا الإعلامية الأدبية . .

كان أحمد بهجت الإنسان من أقرب الشخصيات لقلب صبحى الجيار.. كان يستشعر صدقه ورهافة حسه الناشئة من نزعته الدينية .. كتب أحمد بهجت الصحفى أول تحقيق ينشر عن صبحى الجيار ونشره بمجلة الجيل بتاريخ ١٢ سبتمبر ١٩٥٥.. كان عنوانه «صفقوا لهذا الرجل».. بدأه متسائلاً»:

«ما الذى يعذبك فى هذه الدنيا؟ ما هى مشكلتك التى تفجر الدموع من عينيك؟ إن كل مشاكلك لن تكون قبل مشكلة هذا الشاب الذى يواجه الدنيا بابتسامة تفاؤل عجيبة» .. ثم استطرد يقول «تصور نفسك راقدًا فى فراشك برغم أنفك .. تصور نفسك سجينا قيد لا تراه، وإنما تحسه ، كم ساعة تستطيع أن تمضيها هكذا بلا حركة؟ ساعة.. ساعتين.. عشرة.. عشرين؟؟ ما رأيك إذن فى شاب أمضى ١٢١ ألف ساعة وهو يرقد بلا حراك ! وإذا وقفت إلى جواره لم يستطع أن يدير رأسه ليراك . كل شىء فيه كف عن الحركة إلا نصف ذراعه اليمنى وقلبه وعقله .. إن صبحى الجيار هو الشاب الذى أمضى ١٢١ ألف ساعة وهو يرقد على ظهره كالتمثال المتحجر النائم . لم يمرض بالشلل ، وإنما أصيب بمرض غريب

لاجرثومة له، ولا اسم ، ولاعلاج.. ومع هذا قاومه بابتسامة..
لم يلعن الدنيا.. ولم يفكر فى الانتحار.. وإنما تعلم اللغات،
ودرس فن القصة والرسم، وأصدر أكثر من مجلة أدبية»..

تلك كانت كلمات أحمد بهجت عن صبحى الصابر أربعة عشر عامًا .. فكم من الكلمات تكفى لتعبر عن مصيره ما يقرب من خمسين عامًا منذ بداية مرضه حتى وفاته .

ولقد كانت مجلة «قصتى» من المجلات القليلة فى ذلك الوقت التى حظيت بنجاح فنى وأدبى وإدارى.. وأيضًا لم تعتمد على الإعلانات فى تغطية مصاريفها.. بل اعتمدت تمامًا على نسبة توزيعها.. إلاأنها احتضرت سريعًا برغم محاولات صبحى المستميتة أن تستمر.. وصدر آخر عدد منها فى٣يونية ١٩٥٦ ..

كان هذا الأمل أن تعيش نقطة الضوء الحبيبة لقلب ذلك المكافح الصابر، ولكن كانت صدمته بموتها من أقسى الانهيارات النفسية التى مر بها فى حياته كلها.. ولعلنا نلمس ذلك من خلال كلماته التى دونها فى مذكراته الشخصية معبرًا عن تلك الفترة من حياته.. يقول صبحى فى رنة حزينة مهزومة :

« لقد تعودت وتحملت آلامى الجسدية بصبر .. ولكن .. آلامى النفسية تراكمت على مشاعرى حتى أدت بى إلى غيبوبة معنوية .. ولا أجد لفظًا يعبر عنها خيرًا من اللامبالاة .. وهى حالة من الجمود وتبلّد الذهن وعدم الاهتمام بما يجرى حولى والإحساس بأن الحياة عبث لا تستحق ذرة من اهتمامى ..

وبالرغم من حزنه الشديد وإحباطه فإنه لم يفقد الأمل فى عدالة السماء .. كان دائم التفكير . كيف يبدأ مرة أخرى ؟ ومتى يستعيد قدرته على البداية بحماس ؟ .. ثم خطر أمامه سؤال ملح .. أين صبحى الجيار الأديب ؟ ؟ وهل استطاع – بكتاباته السابقة – أن يحفر لنفسه اسمًا ومكانًا بين الأدباء ؟ ؟ وتلك كانت البداية الحقيقية لأديبنا صبحى الجيار ... .

* * *

# صبحى الجيار أديبًا

كان ذلك فى أبريل ١٩٥٧ حين أعلن نادى القصة عن مسابقة للقصة القصيرة .. وقرر صبحى خوض التجربة حتى يضع يده على أدبه الحقيقى .. وكتب .. كتب فى شهر واحد سبع قصص تفيض بالمشاعر الإنسانية وتزخر بتجارب وخبرات لم يضعها على الورق من قبل .. وتقدم للمسابقة بأربع قصص وفاز وحصل على مرتبتين .. السابعة والثامنة .. من بين ٦٩٢ متسابقًا . . وتوالت كتاباته الأدبية . . وبدأ اسم صبحى الجيار الأديب يتكرر فى نهايات كثير من كتاباته .. وكان ذلك كما كان يردد دائمًا . « نهاية النحس » ..

وتقدم للمسابقة مرة ثانية عام ١٩٥٨ . . وظل مترقبًا خائفًا ينتظر النتيجة . . حتى اتصل به سكرتير نادى القصة تليفونيًّا . .

– ما رأيك يا بطل أنك فزت بالجائزتين الأولى والسابعة .. وهى أول مرة يفوز فيها متسابق واحد بجائزتين من عشرة ..

وصرخ الفائز السعيد من الفرحة وكاد يقفز من سريره لولا .. لولا قيود تكبل جسده كله وتشده لسريره فى لحظة درامية لم ينسها طوال حياته .. وزاره السكرتير يحمل له تهنئة وزير التربية والتعليم ، والدكتور طه حسين ، والأستاذ يوسف السباعى .. وسلمه مبلغ الجائزتين معًا .. كانت القصة الفائزة بالجائزة الأولى هى « يستر عرضك » .. وقد أصدر مجموعة قصصية تحمل هذا الاسم فى عام ١٩٦٠ ..

وكان لفوزه هذا دوىّ كبير وصدى رائع ، كتب كمال الملاخ قبل حفل توزيع الجوائز ، وبالتحديد فى جريدة الأهرام يوم ٢٨ سبتمبر ١٩٥٨ .. كتب تحت عنوان « لن يكون هناك .. عندما ينادون عليه » : بعد أيام .. يسلم كمال الدين حسين الجوائز للفائزين فى القصيدة .. سينادى الوزير اسم صبحى الجيار مرتين .. مرة للجائزة الأولى ومرة للجائزة السابعة ..



وتقدم للمسابقة مرة ثانية عام ١٩٥٨.. وظل مترقبا خائفا ينتظر النتيجة ..
حتى أتصل به سكرتير نادى القصة تليفونيا

لن يرد صبحى .. لن يكون هناك .. لن يستمتع بدفء التشجيع .. لن تلمع له آلات التصوير .. لن يصافحه طه حسين » وكتب يوسف السباعى فى جريدة الجمهورية بعنوان « برغم أغلال المرض » ..

والأديب صبحى الجيار يستحق أن نهنئه لما يعطيه لشبابنا من نموذج طيب للكفاح وعدم اليأس .. فلقد أصيب بالشلل منذ ثمانية عشر عامًا ، ولم تستطع هذه الرقدة أن تطفئ شعلة أمله .. ولم يدع المرض الذى أقعد قدميه أن يقعد ذهنه ويديه ..

وزاره فى منزله الكاتب الكبير عبد الرحمن الشرقاوى الذى فاضت نفسه بالمشاعر وهو يرى صبحى لأول مرة .. وكتب عنه « فى بيت متواضع يعيش صبحى الجيار مستلقيًا على ظهره منذ ثمانية عشر عامًا يتأمل ذكرياته والحياة .. ونفس الرقعة التى لا تتغير من السماء .. من شباك صغير ..

وكتب فى نهاية المقال: «إن صبحى يثق فى العلم.. وفى مقدرته على أن يجد حلاً وعلاجًا لمرضه.. ومن حقه أن يعالج، ولكن تكاليف علاجه فى الخارج تقرب من ثلاثة آلاف جنيه».. وطالب بأن تساهم أكثر من جهة فى علاجه.. وأخذ يسعى

بنفسه لسفره للخارج على حساب الدولة.. وأخذت دائرة الضوء تتسع حوله.. وتوالت الأحاديث الإذاعية.. ومجلة الهواء تقديم فهمى عمر.. حول الأسرة البيضاء مع سامية صادق.. وبرنامج «عندما أطفئت الأنوار» بإذاعه صوت أمريكا..



# نقيب الصابرين

والحق أن تلك الضجة الإعلامية كان لها أثرها فى أن يسافر صبحى بالفعل على حساب الدولة، وصدر القرار الجمهورى فى ٣مارس١٩٥٩ لعلاجه هو وحسين القبانى بالخارج.. وكان لهذا القرار أثره البالغ فى تعرف عديد من أصحاب الحالات المرضية المشابهة عليه من خلال التليفون.. وكانت المقارنة بين قيوده وقيودهم.. دائمًا فى صالحه، فبالرغم من أن أخطبوط المرض التهم معظم مفاصله.. فأصبح لا يستطيع الحركة تمامًا.. فقد كان أكثرهم سعادة وتفاؤلاً حتى إنه لُقِّب بنقيب الصابرين..

كان قرار السفر قد صدر فعلاً ، وكان عليه أن يستعد بأشيائه الضرورية – من ملابس واحتياجات شخصية – ولكن كان أهم ما احتوته حقيبة سفره بعض الأوراق الخاصة التى يستعملها فى كتابة مؤلفاته ..

كان التأليف والكتابة يجريان فى عروقه مجرى الدم .. وجاء يوم السفر .. وتحركت به عربة إسعاف تحمله إلى المطار .. وكان أول من دخل الطائرة محمولاً على نقالة الإسعاف ووضع فوق سرير معلق فى جدار الطائرة قرب السقف .. سرير أشبه بالرف ، ولكن الوضع كان مريحًا له .. وبعد رحلة سفر استغرقت ساعات طويلة وصلت الطائرة لمطار لندن .. ومنه فى عربة إسعاف أيضًا إلى مستشفى لندن كلينيك فى الحجرة رقم ٥٢٧ حيث رحلة علاج طويلة امتدت إلى خمسة أشهر ، كلها سلسلة من الفحوص الطبية ، والأشعات ، والتحاليل ، والعمليات الجراحية لتركيب مفاصل صناعية .. وآلام غير محتملة عقب كل جراحة .. وكان المخدر وقتها هو المخفف الوحيد لحدة الألم .. حتى إنه كان يتلذذ من وخز الإبر التى تحمل معها الراحة ولو لساعات قليلة .. حاول الدكتور

« أوزموند كلارك » أن يثبِّت له مفاصل صناعية خاصة للركبة بدلا من مفاصله الثابتة ولكن فشلت تلك المحاولات ، حتى إنه كتب تقريرًا مفصلاً عن حالة صبحى يعلن فيه أسفه لفشل أمله وأمل ذلك المريض الشجاع .. بل كتب فى نهاية تقريره « إن عظام صبحى اللينة لا تحتمل وضع المفصل فى مكان ثابت .. ولذا كان علينا إزالة المفصل وإعادة تثبيت الركبة .. إنى كطبيب معالج فى غاية الأسف ، كان أملى فى المزيد من أجل ذلك المريض الشجاع .. المتعاون .. الذى عمل كل ما فى وسعه لإنجاح العملية » ..

كان يحلم بالسفر والعلاج .. بالسير على قدمين .. كان يحلم حلمًا بعيد المنال تبدد على صخرة واقع مرير ، يقول له فى إصرار : ليس أمامك سوى المرض .. وازدياده .. واقع يقول ستقضى أيامك كلها على السرير .. سيزحف المرض إلى أصابعك وفكك وعينيك .. وعاش اليأس مثلما عاش الأمل ، ولكن عدالة السماء كانت تدخر له خيرًا كثيرًا ، يذكره برحمة الله سبحانه وتعالى التى هى فوق اليأس ، وفوق كل عذاباته الماضية .. والمتوقعة مع تفاقم المرض ..

قال له الطبيب الإنجليزى المعالج وكأنه يضع حدًّا لأى محاولات للعلاج :

– مستر جيار .. عليك أن تطبق المثل الإنجليزى « علينا أن نعد العدة لأسوأ الظروف .. بينما نأمل فى الأحسن ، وعليه سنجهز لك بعض الأجهزة والمعدات التى تواجه بها حياتك .. وظروفك الجديدة » ..

كان على صبحى أن يعترف بالواقع ، وأن يفكر فى المستقبل بكل احتمالاته.. وأصبح تفكيره فى كيف يحيا مع الألم، وكيف له أن يعتمد على نفسه فى احتياجاته اليومية العادية.. كيف يأكل وحده؟.. كيف يكتب دون أن يملى على أحد؟ كيف يستخدم التليفون وحده؟ كيف وألف كيف.. ملأت تفكيره وهو يواجه أيامًا هى العجز بعينه، ولكنه رفض الاستسلام، وعاش المواجهة بقوة وتحدٍّ أصبحت أدواته الشخصية مختلفة عن كل الأدوات.. الشوكة والملعقة وفرشة الأسنان.. ماكينة الحلاقة.. المشط.. فرشاة الشعر.. إسفنجة الحمام.. سماعة التليفون.. كلها تم تركيب ذراع طويلة لها.. حتى يستطيع

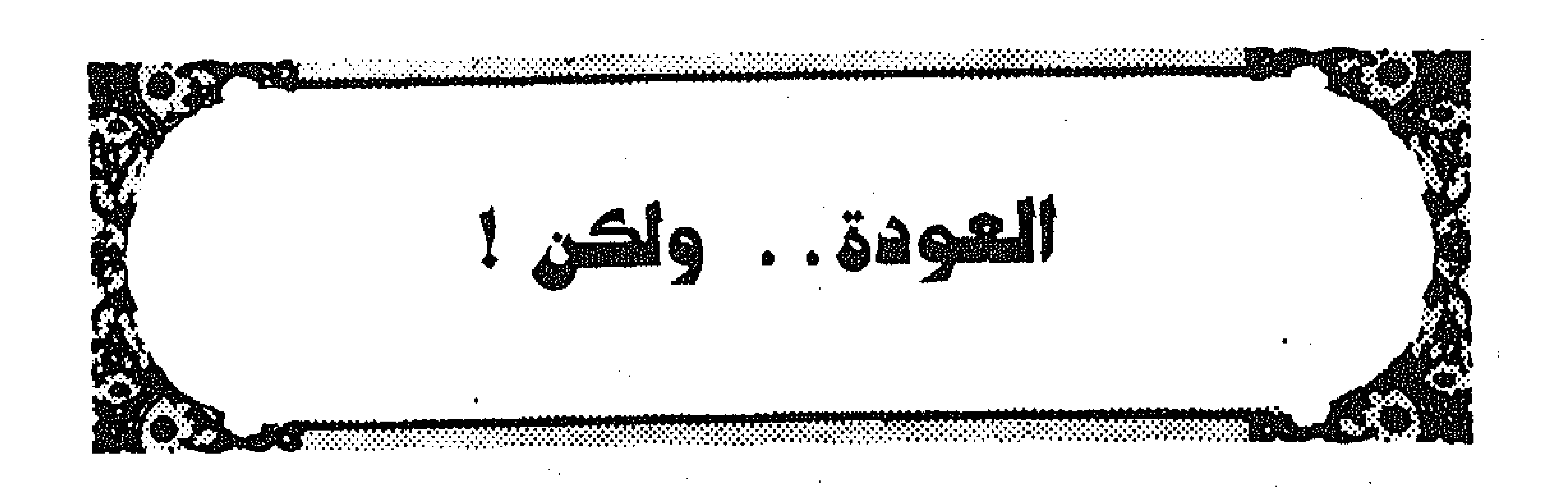
استخدامها بسهولة عند توقف مفصل الكوع عن الحركة.. ولم يتوقف تفكيره عند هذا الحد، ولأن الحاجة أُمُّ الاختراع فلقد كانت حاجته مُلحّة لأن يفكر فى جديد يساعده.. فقد ابتكر مرآة صغيرة لها ذراع طويلة يرى بها أى مكان خلفه أوبجواره تعوق عن رؤيته رقبته المتيبسة.. اخترع أيضًا مجموعة من العصى، إحداها طويلة ذات طرف معوج يحك بها ما لا تصل إليه يده من أجزاء جسمه.. وعصا قصيرة مع المنديل يمسح بها وجهه وعينيه.. كان يكتب ويرسم على لوحة من خشب «الأبلكاج» الخفيف..

عاش فى لندن تجربة فريدة من الألم والأمل .. من العجز ومواجهته .. كان يحلم بالتغلب على آلامه ويسرف فى أحلامه .. حتى إنه عندما أحضروا له جهاز تليفزيون فى حجرته فى المستشفى اعتبره مخدرًا جديدًا .. وكتب لأهله ضمن خواطره « أخيرًا .. وبعد تسعة عشر عامًا من الحرمان الطويل .. رأيت السينما .. رأيت أفلامًا تاريخية .. وأفلام رعاة البقر ..استمتعت بالباليه .. شاهدت مباريات كرة القدم .. طرت إلى عالم الفضاء .. تسلقت أعلى الجبال ورأيت لأول

مرة الزعيم جمال عبد الناصر يخطو أمامى .. كل ذلك على شاشة التليفزيون .. ذلك المخدر الجديد » ..

كان يتساءل وهو على سرير مرضه فى لندن .. وماذا بعد أن فشلت جميع العمليات الجراحية التى أجريت ؟ ؟ وكيف له أن يعود لوطنه حاملاً آماله التى لم تتحقق .. وأحلامه التى ضاعت فى حجرة العمليات ؟ ؟ ولم يكن أمامه وأمام أطبائه سوى قرار العودة ..

* * *



# العودة.. ولكن !

ويعود إلى أرض الوطن مساء ١٨ سبتمبر ١٩٥٩ بعد خمسة أشهر بعيدًا عن الأهل والأصدقاء ودفء المشاعر التى استقبلته استقبالاً حافلاً فى المطار .. كان عليه أن يبتسم فى وجوه مستقبليه ورجال الصحافة برغم الحزن العميق فى قلبه ..

وبعد عودته من رحلة العلاج .. وانحسار موجة حزنه وكآبته عن النفس تدريجيًا .. أصبح شغله الشاغل كيف يحيا حياته فى سعادة .. وكان أن بدأ بتطبيق المثل « إن لم يكن ما تريد فأَرِدْ ما يكون » .. وبدأ مرحلة جديدة من حياته ..

وبدون شهادة جامعية وبقيود جسدية .. تحدّ من حركته .. بدأ مرحلة وجوده الحقيقى .. وجد أن لديه مجموعة كبيرة من القصص القصيرة تستحق أن تنشر ، وأن تحتل صفحات المجلات والصحف .. وكانت الفترة بين عام ١٩٦٠ و ١٩٦٣ غنية بفرص النشر ، فنشر إنتاجه فى مجلة الإذاعة ، ومجلات وطنى ، والجيل ، والمساء .. ومجلة الأسبوع العربى اللبنانية ، ومجلة فزّان الليبية .. ومجلتى اليقظة وأنغام العدنية .. أيضًا نال منحة تفرغ لمدة عامين من يونيه ١٩٦٥ كتب خلالها سيرة حياته الذاتية .. وتجربته الرائعة فى الصمود والكفاح وضمنها كتابه « ربع قرن فى القيود » من ثلاثة أجزاء ..

لم يكتف صبحى بالتأليف ، بل إنه كان مشغوفًا بالترجمة وعمل مترجمًا لمؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر .. وملأ ساعات يومه بالكتابة والترجمة وكتابة الأعمال الدرامية للإذاعة والتليفزيون ..

كان نموذجًا متفردًا للإنسان الحق بكل أبعاد الإنسانية.. رفض قيوده الجسدية وحاربها بقلمه وهو راقد فى وضع أفقى لا يتحرك عنه قيد أنملة .. حاربها بإرادته وبتسخير عقله للتغلب

على كل ظروفه ، اخترع أجهزة بسيطة فى فكرتها تساعده على تعويض جزء من عجزه .. اخترع كرسيًّا متحركًا ينقله إلى الحمام .. وسريرًا متحرك الأجزاء يساعده على تغيير وضع رقدته الأفقية .. ولوحة من الخشب موضوعة بجانبه فى متناول يده ثبت فوقها مجموعة من الأزرار التى تتحكم فى جميع الأجهزة الكهربائية بحجرته .. مما يجعله فى غنى عن مساعدة أحد .. والحق أن أهم تلك الأجهزة التعويضية هو إنسان آلى - أو هكذا كان يطلق عليه - وهو هيكل من الحديد يتحرك على أربع عجلات .. له ذراعان تمتدان فوق السرير وتثبَّتان بأربطة حول الصدر والفخذ .. ويتحرك بواسطة يد فيرتفع عن السرير ويبتعد عنه ليصل إلى الكرسى المتحرك الذى ينقله بدوره إلى الحمام .. كانت سعادته لا توصف بتوصله إلى ذلك الاختراع الذى نبع فعلاً من حاجته الجسدية والنفسية ..

* * *

## رفيقة حياته

لقد تألم صبحى الجيار وقاوم الألم .. يئس وتغلب على يأسه .. عاش بالأمل والحلم وحوّل كل ذلك إلى واقع رائع يحسده عليه آلاف الأصحاء جسديًّا .. حول حياته إلى تحديات متتالية وصل بها ووصلت به لقمة السعادة ..

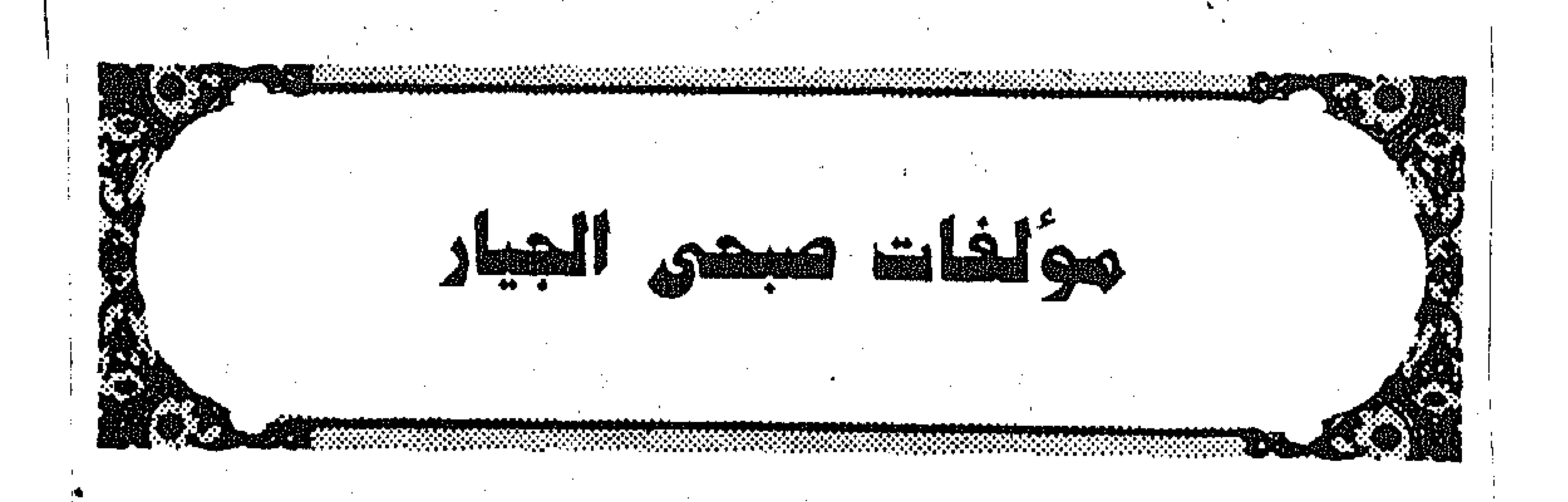
كان نقيب الصابرين .. على مرضه .. وعلى كل الأمراض التى لحقت به طوال حياته ، وراحت تنكّل بذلك الجسد الراقد فى وداعة الصابر الراضى وليست وداعة المستسلم .. ماذا لوعلمنا أن صبحى لم ينج من مرض إلا أصيب به .. قرحة المعدة .. حصوات بالكلى .. ضغط دم عالٍ ، سكر

عالٍ .. شلل نصفى بالوجه .. حتى كانت السنة الأخيرة من حياته وبدأت ذاكرته تخونه ولو للحظات .. وكانت تلك اللحظات هى أقسى وأصعب ما مر به فى حياته كلها .. لم يلحظ تلك الحالة إلا المقربون له ، ومع ذلك فقد عانى منها نفسيًّا حتى آخر أنفاسه .. فقد كان يخجل من البوح بآلامه ، ولطالما كتم آهاته حتى لا يبدو ضعيفًا .. كان اعتزازه بكرامته فوق كل شىء .. وكثيرًا ما تعرض لآلام المغص الكلوى الحادة .. المفاجئة .. وكان يكتم ألمه وقتها حتى أصبح الأمر أكبر من احتماله .. ساعتها .. وساعتها فقط .. كان يطلب من رفيقة شقائه ( نعمات ) حقنة مخدرة .. كانت هى الوحيدة التى ترى دموعه وتشعر بألمه .. وتحمل عنه بعضًا منها بِمُسَكِّن أو قربة ماء ساخنة تعدها له .. كانت نعمات - وتعالوا معًا نطلق عليها عظيمة » صبحى الجيار - أو كما كان يسميها .. هدية من السماء .. دخلت بيته لأول مرة فى ٤ مارس ١٩٤٨ .. ملاكًا فى هيئة إنسان .. عاشت معه أختًا .. وصديقة .. ممرضة .. وسكرتيرة .. كانت له نعم الإنسانة التى كان يظن فى أحيان كثيرة أن الله خلقها من أجله .. كان تفانيها فى خدمته تصل إلى حد أنها تستحلفه ألاَّ يتوانى عن إيقاظها من

نومها إذا شعر بأى ألم .. نعمات .. عظيمة صبحى الجيار كانت تفعل كل ذلك بوحى من ضميرها ، دون غرض أو هدف مادى .. ولأنها هدية الله له فقد حاول بكل ما يملك أن يعوضها عن كل لحظات التعب والسهر .. بل إنه صاحب دور فعال فى حياتها .. علّمها كيف تكون سكرتيرة ناجحة له .. تكتب على الآلة الكاتبة .. تنظم له مواعيده .. وعلمها الصلاة ..

عاشت معه وله هو الإنسان المقعد الذى لم يغادر سريره لسنوات طوال ، وكل ما تتمناه أن تكون بجواره تتفانى فى خدمته تقديرًا له ولعبقريته الفذّة ولروحه العالية وسمو نفسه .

* * *



## مؤلفات صبحى الجيار

لم يتوقف صبحى الجيار لحظة من لحظات حياته الطويلة عن الإبداع .. بل جعل من الكلمة خلاصًا ناجحًا مما كان يعانيه ..

وقد أصدر أعماله الأدبية منذ عام ١٩٦٠ ومن أهمها : يستر عرضك .. وسوق العبيد والعيون الزرق .. وعلى الأرض السلام .. وهى مجاميع قصصية ..

ولم ينس أن يكتب سيرة حياته فى أجزاء ثلاثة تحيط بكل دقائق حياته وأفكاره ، أسماها « ربع قرن فى القيود » ..

هذا إلى جانب الأعمال المترجمة مثل :

معركة السفينة ١٩٦٢ ، وقصة فيلادلفيا « مسرحية » ١٩٦٤ ثم السيف المعقوف ١٩٦٨ تلاها بعد ذلك أعماله الرائعة : الشمس كم هى نائية ، وبرج الجوزاء .. وكيف تقوى ذاكرتك عام ١٩٧١ ، ١٩٧٣ ، ١٩٧٤ وقد استحق هذا العطاء أن ينال صاحبه المكافح العظيم تقدير الدولة وتشجيعها ، فحصل على عدة جوائز وأوسمة تقديرية مثل :

- جائزة مسابقة نادى القصة ١٩٥٨ .
- وجائزة الدولة التشجيعية فى القصة القصيرة ١٩٦٤ .
- وجائزة الدولة التشجيعية فى التراجم ١٩٧٠ .
- ووسام الجمهورية من الطبقة الأولى فى العلوم والآداب والفنون ١٩٧٠ .

وبعد : فهذه هى مسيرة إنسان عظيم عاش بالأمل ولاقى من الآلام مالا يتحمله بشر إلى أن توفى فى ٢٥ فبراير ١٩٨٧ ضاربًا المثل فى الصبر والتحمل وقوة الإرادة .

# الفهرست

صفحة

| رقم الإيداع | | ١٩٩٤ / ٣٢٤٨ |
| --- | --- | --- |
| الترقيم الدولى | 977 - 02 - 4461 - 9 | ISBN |

١٥ / ٩٣ / ٧

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)



## عظماء عاشوا بالأمل

• نماذج من العظماء العباقرة الذين فقدوا واحدة أو أكثر من حواسهم.. لكنهم ضربوا المثل فى التمسك بالأمل.. وتحدى هذا الفقد.. والإصرار المتميز.. ربما أكثر من الأصحاء.



دار المعارف